محاضرة رقم 4نشأة علم ما قبل التاريخ في شمال افريقيا

كانت للمدرسة الفرنسية الأسبقية في الاكتشافات الاثرية بمنطقة شمال افريقيا عامة والجزائر بصفة خاصة حيث تزامن هذا الاهتمام بالحملة الاستعمارية التي قادتها سنة 1830 م وصادفت كذلك المرحلة الحاسمة التي بلغها بوشي دو بارت في موقع ابيفيل سنة 1833 م بفرنسا والاكتشافات المتتالية بمواقع أخرى وقد شهدت الجزائر اكتشافات هامة في مجال الاثار الفنية وكانت مواقع الجنوب الوهراتي (الاطلس الصحراوي) السبابة في اظهار التحف الفنية او ما يسمى بالرسومات و النقوش الصخرية منذ سنة 1847 م و هذا قبل رسومات مغارتي لاسكو Lascaux و ألتاميرا Altamira بإسبانيا وفرنسا بكثير.

إذا كانت القارة الأوروبية قد اشتد فيها صراعات حول مسألة الخليقة وازمنتها الكرونولوجية ما بين رجال الدين والمدعين بأكاديميين محافظين ضد الفئة المستنيرة التي اعادت النظر في النص الديني بخصوص مسألة الخلق و صيرورته عبر الزمن على غرار بوشي دو بارت و لامارك و كوفيه، فكل هذه الصراعات الفلسفية و الفكرية قد انعكست إيجابا على المنطقة الافريقية رغم ان من المهتمين أجانب الا انهم وجدوا المكان الخصب في معاينة نظرياتهم و دعمها لانهم كانوا بعيدين من مضايقات رجال الدين و كانت البداية مع – بالافوان Balavoine – الذي اكتشف في رملية – باليكاو Palikao – سنة 1870 م بضواحي ولاية معسكر اين تم استخراج بقايا عظمية لحيوانات ضخمة و انياب دفاعية للفيلة و فحص الموقع كذلك الدكتور – توماسي – و أكد على أهمية الموقع و سمي المكان بموقع تيغنيفين نسبة الى اسم منطقة تيغنيف اذ اكتسبت شهرة عالمية نظرا لما تحويه من أهمية كرونولوجية و باليونولوجية.

تعاقب على موقع – تيغنيف – بالجزائر عدة أسماء من علماء الاثار وعلماء الباليونولوجيا على غرار – اغوست بومل 1821-1898 م - بحكم وظيفته كمسؤول في قطاع المناجم لعدة سنوات بالجهة الغربية للجزائر، ساهم في اكتشاف العديد من بقايا فخرية لمستحاثات لحيوانات انقرضت منذ ازل بعيد مثل نماذج بقايا عظمية للفيل و فرس النهر و الكركدن، فاصبح بومل مختص في المستحاثات الاثرية في شمال افريقيا، كما على في نفس المكان على أدوات حجرية تعود الى ما يسمى

بحضارة الحصى المنحوتة و يرجع له الفضل كذلك في اكتشاف موقع الجزائر العاصمة بعين طاية / حاليا لبقايا عظمية لنوع الثدييات : الجمل، البقرات و ثور العتيق (بيلوروفيس العتيق).

نظرا لأهمية الموقع الوهراني قامت الجمعية الفرنسية لتطوير العلوم Association Française pour l'avancement des Sciences - سنة 1882 م تقديم اعانة لكل من بومل و زميله توماسيني في مواصلة العمليات الحفرية بالجهة الغربية للجزائر علما ان المنطقة عرفت ميلاد - يول بلاري 1869- 1942 م – الذي ساهم كثيرا في الاكتشافات الاثرية و خاصة كان من المرجعيات في دراساته لأصناف - الرخويات – و مختصا كذلك في دراسة الكهوف التي كانت تزخر بها المنطقة و استفاد من الاعانات المالية من طرق نفس الجمعية التي ذكرت في الأعلى و استطاع ان يصنف منذ سنة 1886 م عدة أدوات حجرية و من بينها تلك التي تعود الى الفترات النيوليتيكية و اطلق عليها اسم النيوليتيك الوهراني Le Néolithique Oranais ، نسبة الى إقليم وهران إضافة الى بلاري تواصلت المجهودات مع عالم اخر هو دومرج Doumergue 1858- 1939 م بكهف وادي سعيدة سنة 1890 م.

مع بداية القرن العشرين، بدأت مرحلة ثانية أكثر خصوبة من حيث الاكتشافات الاثرية التي تعود الى فجر التاريخ، حيث شهدت فترة 1909-1912 م عثور على أدوات حجرية من خلال خصائصها منح لها اسم الحضارة القفصية نسبة الى موقعين بالجزائر و تونس (قفصة و ردايف) و اكتشاف كذلك حضارات أخرى على غرار الحضارة الايبيرو- موريسكية او الايبيرو-مغربية و الحضارة الموريتانية و كان تاريخ 1912م الاعتراف بالحضارتين القفصية و الايبيرو-موريسكية و القفصية في شمال افريقيا اللتان قدمتا دفعا كبيرا في فهم التطور الحضاري في فترات النيوليتيك، كل هذه الاكتشافات بقيت منحصرة في مجال ضيق وفي إطار جغرافي محدود مرتبطة بشمال افريقيا حتى جاء عالم الباليونتولوجيا مارسلان بول 1861- 1942 م الذي شجع أبحاث علماء المدرسة الافريقية (اثريون شمال افريقيا) وعرض ابحاثهم المنشورة في عدة مجلات العلمية الموجودة في المدن الكبرى مثل الجزائر، قسنطينة، تونس وسوسة الى زملائهم الأوروبيين وكانت مساهمة بول في نشر مقالاته العلمية بمجلة " الانتروبولوجيا" التي كان يصدرها معهد الباليونتولوجيا البشرية Institut de la Paléontologie Humaine بفرنسا منعرجا حاسما في التعريف بباحثي شمال افريقيا و اصبح بول مرجعا مهما في الدراسات الخاصة بالعصور الجيولوجية في شمال افريقيا.

لم تتوقف الأبحاث في شمال افريقيا والجزائر خاصة خلال الحرب العالمية الأولى 1914- 1918 م، حيث شهدت انطلاقة جديدة في الأبحاث الاثرية من خلالها و اثر اعمال حفرية تم اكتشاف عن حضارتين افريقيتين من طرف ريغاس Reygasse 1881- 1965 م ، في نواحي تبسة وسماهما بالحضارتين: الصبايخية والعاترية و انصب اهتمامه كذلك في دراسة الرسومات و

النقوش الحجرية في الجزائر و اصدر كتابا خصصه للفترات العصور الحجرية في شمال افريقيا،
تحت عنوان: العصور الحجرية في افريقيا الشمالية و في نفس النسق، شهدت سنة 1930 م صدور
كتابين هامين حول موضوع ما قبل التاريخ في شمال افريقيا:

الكتاب الأول لهنري بروي 1877-1961 م تحت عنوان: افريقيا في ما قبل التاريخ؛

الكتاب الثاني لهيجو اوبرماير Hugo Obermaier 1877- 1946 م تحت عنوان: العصور الحجرية
يافريقيا الصغرى وظهر كتاب اخر تحت عنوان: العصور الحجرية في افريقيا الشمالية للأثري
ريغاس. ثم تاتي سنوات الخمسينات القرن الماضي بحيث شهدت الساحة العلمية ميلاد
كتابان مهمان لكل من العالم الباليونتولوجي و الجيولوجي رايموند فوفري 1890- 1967 م و
خاصة بالوت 1907 – 1992 م، عنوان الكتاب الأول: ما قبل التاريخ الافريقي الجزء الأول، اما
الكتاب الثاني حمل عنوان: ما قبل التاريخ شمال افريقيا، فهما بمثابة مرجعين لمن يريد دراسة
فترات ما قبل التاريخ في المغرب الكبير. كما تأسست مجلة: "ليببكا" سنة 1953 م اعتنت بالتاريخ و
علم الاثار و فترات ما قبل التاريخ بصفة أكاديمية و تم انعقاد المؤتمر الثاني الافريقي لما قبل التاريخ
سنة 1952 م.